اسماعيل صبري

ولد عام ١٨٥٤ وتوفي عام ١٩٢٣

شاعر لم يرد لنفسه أن يكون شاعراً ، ولم يتكلف الشعر تكلفاً ، ولم يسع الى زمرة الشعراء سعياً ويقف على أبوابهم ويتمسح بأعتابهم ، إنما كان فناناً موهوباً قد حبته الأقدار بهذه الموهبة فلم يستطع لها رداً ولا منها خلاصاً ، وكان لا يكره شيئاً كما يكره التعمل والتصنع وتكليف الأيام غير طباعها ، ولا يحب شيئاً كما يحب الطبيعة السهلة السلسة التي لا تعرف التعقيد ولا الالتواء ، ومن أجل ذلك لم يتخذ الشعر صناعة إنما اتخذه لوناً من ألوان الراحة النفسية ، والاستجابة لموهبته القاهرة القادرة ، والتعبير عن خلجات قلبه ونبضات شعوره ، وهوايته بامرئ القيس الذي لم يقل الشعر راغباً أو راهباً ، هذا الشاعر هو اسماعيل صبري ، وهو شاعر قاهري ولد في ١٦ فبراير عام ١٨٥٤ ودرس في مدرسة المبتديان ثم بالمدرسة التجهيزية فمدرسة الإدارة ثم أُلحق بالبعثة المسافرة الى فرنسا ، ونال شهادة الليسانس في الحقوق من كلية مدينة اكس في مايو عام ١٨٧٨ وهو في الرابعة والعشرين من عمره .

وعين عقب عودته من البعثة مساعداً بمحكمة مصر الابتدائية ثم نقل في نفس الوظيفة إلى محكمة المنصورة الابتدائية ثم الى محكمة الاسكندرية الابتدائية المختلطة ، وظل يتدرج في مناصب القضاء حتى عين وكيلاً لمحكمة طنطا الأهلية ، فرئيساً لمحكمة الاسكندرية الأهلية ، فوكيلاً لمحكمة الاستئناف في ٢٧ ديسمبر عام ١٨٩١ ، فنائباً عاماً عام ١٨٩٥ ، وكان يزاول قبل ذلك عمل النائب العام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قبل تعيينه في هذا المنصب عن طريق الانتداب . وفي أول مارس عام ١٨٩٦ عين محافظاً للاسكندرية ، ثم وكيلاً لوزارة الحقانية أو العدل كما نسميها اليوم ، وانتهى به المطاف الى اعتزال الخدمة في ٢٨ فبراير عام ١٩٠٧ وتفرغ لأعماله الخاصة ومزاجه الأدبي حتى انتقل إلى رحمة الله وهو في التاسعة والستين من عمره في ٢١ مارس عام ١٩٢٣ .

شعر الشباب وشعر الشيخوخة :

تلك هي حياة اسماعيل صبري في سطور والملاحظ أنها كانت زاخرة بالعمل والإنتاج بالقياس إلي وظيفته في الخمسين سنة الأولى من حياته . أما السنوات الباقية من عمره فقد قضاها بعد اعتزاله الخدمة ، ومن يقرأ كتابه يلاحظ أن إنشاده للشعر لا يقتصر على فترة دون فترة ولم يكن يمتنع عن قرض الشعر في تلك الأوقات التي شغل بها بمسؤوليات القضاة ومشكلات المتقاضين ، بيد أنه كان ينظمه إذا ما خلا إلى نفسه وأطلق العنان لفكره دون افتعال أو اصطناع ؛ وشعر الشباب يمتاز بعاطفه قوية جياشة أشبه شيء بسيل العرم الذي يجرف أمامه كل شيء ، وشعر الشيخوخة يمتاز بروح التصوف والإيمان والورع والتقى ، وشعر الفترتين صادق ليس فيه كذب وليس فيه خداع ولا تضليل ، وإنما ينبعث من النفس إلى النفس ويصدر من القلب إلى القلب .

بين صبري والبحتري :

قرأ اسماعيل صبري الشعر للقدماء ولعله تأثر بأبي عبادة البحتري في إحكام الأسلوب ، وصقل الديباجة ، وحلاوة الموسيقى ، وإشراق العبارة ، ويروي الدكتور محمد صبري أن اسماعيل صبري كان مغرماً بقول البحتري :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولقد تأملت الفراق فلم أجد يوم الفراق على امرئ بطويل
قصرت مسافته على متزود منه لدهر صبابة وعويل

ولكن اسماعيل صبري كان يختلف عن البحتري في أشياء كثيرة ، كان البحتري وصافاً من الطراز الأول وكان الوصف عنصراً هاماً من عناصر فنه الشعري ؛ فوصف بركة المتوكل ، ووصف إيوان كسرى ، ووصف الربيع ، وألقى بدلوه في هذا الميدان حتى زخر وامتلأ وفاض ، أما اسماعيل صبري فقد كان مقلاً في وصفه ، ولا نجد في شعره قصائد ينشئها وينشدها في الوصف ، إنما يأتي الوصف عرضاً وقد لا يأتي فهو لا يحفل بأمره ، ولا يأبه بشأنه كهدف من أهداف الفن الشعري ، وهذا لا يمنع وجود بضعة أبيات في ديوانه في الوصف يجود بها كما تجود الصخرة بالماء الزلال كقوله في وصف النيل :

ما أعجب النيل ما أبهى شمائله في ضفتيه من الأشجار أدواح
من جنة الخلد فياض على ترع تهب فيها هبوب الريح أرواح
ليست زيادته ماء كما زعموا وانما هي أرزاق وأرباح

الصداقة والأصحاب :

ولعل اسماعيل صبري يشبه في مجال آخر شاعراً آخر ، أما المجال فهو باب الصداقة والصحبة ومعاشرة الناس ورأيه في ذلك جميعاً ، أما الشاعر فهو ابن الرومي ، فاسماعيل صبري كثير الحديث عن طباع البشر وأخلاق الناس ، وتارة تجده منشرح النفس مثلوج الصدر ، وتارة تجده منقبض الأسارير ضيق الخلق ، وهو في حديثه الشعري يعبر عن تجربة صادقة وخبرة واعية وروح عاقلة شأنه في ذلك شأن ابن الرومي بيد أنه لم يكن كابن الرومي يجنح إلى الإطالة وإلى تحليل المعاني وتفصيلها وتقليب وجوهها إنما كان يجود بالبيت أو البيتين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أو المقطوعة القصيرة فإذا هي تضم جماع رأيه وشئيت فكرته لا يلجأ بعدها الى إطالة أو إسهاب . ولعل هذين البيتين يصوران اتجاهه أصدق تصوير فهو يقول :

إذا خاني خل قديم وعقني ... وفوق يوماً في مقاتله سهمي
تعرض طيف الود بيني وبينه ... فكسر سهمي فانثنيت ولم أرم

مسرحية من خمسة فصول : ومن أروع ما قرأته في التعليق على هذه الأبيات قول المرحوم أنطون الجميل : « في هذين البيتين رواية تمثيلية ذات خمسة فصول ، الفصل الأول : الصداقة ، والثاني : الخيانة والعقوق (إذا خاني خل قديم وعقني) والفصل الثالث : النهوض إلى الانتقام (وفوق يوماً في مقاتله سهمي) . والفصل الرابع : النزاع بين الصداقة والانتقام (تعرض طيف الود بيني وبينه) . الفصل الخامس : انتصار الوداد (فكسر سهمي فانثنيت ولم أرم) .. » وهكذا ضم هذان البيتان عمليات شتى كان في وسع شاعر آخر أن يحللها ويفصلها ويعلق عليها ويستخلص منها بيد أن اسماعيل صبري أراد أن يوجزها في هذين البيتين دون إطالة أو إسهاب وقد أثبت صبري في هذين البيتين مقدرته على امتلاك ناصية بلاغة الإيجاز .

قصة الثعلب والغراب : وترجم اسماعيل صبري قصة الثعلب والغراب عن الشاعر الفرنسي لافونتين ونشرها في ١٧ يناير عام ١٩١٠ وكنا ننتظر بعد هذه الترجمة أو قبلها ترجمات أخرى لقصص لافونتين أو قصائد الفرد دي موسيه أو الفونس ده لامارتين أو الفرد دي فيني أو فرلين أو رامبو أو غيرهم من أعلام الشعر الفرنسي ولكننا لم نجد من ذلك شيئاً بل كنا ننتظر من شاعر عربي سافر إلى فرنسا وقضى هناك نحو أربعة أعوام أن يطلعنا على ثمرة دراسته في الخارج واتصاله

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بالهيئات الثقافية الجديدة ولكن دون جدوى ؛ والعجيب أن اسماعيل صبري في حياته الطويلة العريضة التي أوشكت على السبعين لم يخرج لنا ثمار دراسته في الخارج ، ولم يجنح إلى المسرحية الشعرية التي كانت تنتشر في أوروبا وتعرض على المسارح وتطبع في الكتب ، ولم يجنح إلى تطعيم الشعر العربي بألوان متنوعة من الثقافات والأفكار . والعجيب أنه بعد سفره إلى أوربا واتصاله بالحضارة الغربية يعود فيلجأ إلى تشبيه النساء بالظباء ، ولعل أول من ابتدع هذا اللون من التشبيه الشاعر امرؤ القيس ، ولف لفه أعلام الشعر في العصر الجاهلي كالنابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى فيقول :

يا ظبية من ظباء الأنس راتعة بين القصور تعالى الله باريك
هل النعيم سوى يوم أراك به أو ساعة بت أقضيها بناديك

فالمعنى مستهلك ولكن الاستخدام جميل والأسلوب دقيق مثله في ذلك مثل هذين البيتين اللذين نظمهما في شعر الحبيب فلم يأت بمعنى جديد أو فكرة مبتكرة سبق بها غيره من الشعراء إنما كان له فضل الصياغة وحلاوة التركيب

أرسلي الشعر خلف ظهرك ليلاً واعقديه من فوق رأسك تاجا
أنت في الحالتين بدر نراه صادعاً آية الدجى وهاجا

ورأى بعض النقاد بعض وجوه الشبه بين قول « مونتي » في موقف عشاق « وما كنت أدري أكان هو أم أنا » وبين قوله :

ولما التقينا قرّب الشوق جهده شجيين فاضا لوعةً وعنابا
كأن حبيباً في خلال حبيبه تسرب أثناء العناق وغابا

والواقع أن المعنيين يختلفان رغم ما يبدو فيهما من مشابه ، فمونتي لا يستطيع أن يفرق هل هو مونتي أم صاحبه ، أم اسماعيل صبري . فقد أصبح المتعانقان شخصاً واحداً لا اثنين ، وظاهر أن المعنيين متباينان زد على ذلك أن « مونتي »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا لم يكن شاعراً ينهج الشعراء على منهاجه أو ينسجون على منواله ، إنما كان كاتباً من كتاب المقال ولم يكن الموضع موضع عناق وإنما موضع اتصال أفكار واقتراح آراء ، ولست أدري ما الشاعرية التي وجدها اسماعيل صبري في « مونتي » حتى تجاهل « موسيه » وهوجو وبودلير وغيرهم ولم يجد سواه ! إن صدق قول القائلين أنه أخذ هذا المعنى عن « مونتي » وأظهروا بذلك صلته بالأدب الأوروبي .

اسماعيل صبري والشعر الغنائي :

على أن الشيء الجدير بالتسجيل أن اسماعيل صبري رغم هذه النقدات كان رائداً من رواد الشعر الليريكي الرفيع في وقت نزع فيه الشعراء إلى الأحاجي والألغاز والتهنئة بمولود أو الوقوف على الأبواب والتمسح بالأعتاب وانتظار الرفد والعطاء ، وإزجاء الفرحة بالترقية ، أو الانتقال من الاسكندرية إلى أسوان أو من أسوان إلى الإسكندرية وغير ذلك من الأغراض التي هي بالعبث أشبه ، وإلى الهزل أدنى وأقرب .

كان اسماعيل صبري زعيماً من زعماء الشعر الغنائي في هذه الفترة ، ومن الشعراء الذين يعكفون على مشاعرهم يصورونها أصدق تصوير ، وعلى قلوبهم فيخرجون ما فيها من مكنونات . كما أنه ساهم في ميدان التأليف الغنائي ـ سواء باللغة العربية أم اللغة العامية ـ ومن أشهر أغانيه « قدك أمير الأغصان » التي غناها عبده الحمولي و (الحلو لما انعطف) التي غناها محمد عثمان ، وفيها يقول :

الحلو لما انعطف ... اخجل جميع الغصون
والخد آه ما انأطف ... ورده بغير العيون !

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكان عبده الحمولي يغني أغانيه وهو لا يزال طالباً ، فيجذب إليه الأنظار ، ولفت إليه عشاق الفن والغناء .

الشعر الفكاهي عند صبري :

وحاول اسماعيل صبري أن ينظم بعض شعره في الملح والفكاهة فقال شعراً تعريضاً باللطمة التي أصابت المويلحي صاحب مصباح الشرق فقال :

قفاك محمد نعم السلاح إذا التف بالعسكر العسكر
وصدغك إن نقر النافرون عليه يرن ولا يكسر !

وليست هذه الأبيات على حظ كبير من الفكاهة أو البراعة في التصوير كما تصور صبري ، ولا يمكن أن تلحق بفكاهة ابن الرومي ، إذ كان يعمد إلى التصاوير الكاريكاتورية والتعابير الهزلية التي تثير الضحك وتبعث على الفكاهة وتدعو إلى المرح ، كتصوره للأجدب الذي شبهه بالمصفوع وهو يتجمع ويتهيأ للصفع ويخشاه . فرسم أمامنا صورة كاريكاتورية ضاحكة تثير الضحك والفكاهة .

معارضات صبري :

وعارض اسماعيل صبري شوقي ، إذ نشرت مجلة الزهور التي كان يصدرها المرحوم الأستاذ أنطون الجميل أبياتاً ارتجلها شوقي بعارض أبيات أبي الحسن الحصري الضرير المولود في القيروان المتوفى في الأندلس عام ٤٨٨ هـ :

يا ليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده ؟
أقريب من دنف غده فالليل تمرد أسوده

فنظم صبري من نفس الوزن والروي ، ولما مات شوقي رثاه بقصيدة من درر شعره جاء فيها :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فاذوب كمصباح السماء كلاكما مال النهار به وليس بطافي
الشمس تخلف بالنجوم وأنتَ بالآثار والأخبار والأوصاف
غلب الحيلة فتى يسد مكانها بالذكر فهو لها بديل وافي !

وله جملة مشهورة في شعر الأقطاب الثلاثة شوقي وحافظ ومطران يقول فيها ، شوقي ينظم وحافظ يبني ومطران يبتدع ، ولما أنشد مطران قصيدته الميمية في حرب طرابلس طرب صبري وكاد يجن بها جنوناً ، وكان ينشد منها هذا البيت :

يقول للعلم الخفاق في بده فيسيء من الأرض ما تختار يا علم

وقابل مطران بعد ذلك فقال ، لقد أسكرتني .. إنك فت الشعراء بستمائة عام .

تكرار المعاني والتصوف :

وفي الوقت الذي نجد فيه اسماعيل صبري يكرر بعض معانيه كتلك الأبيات التي أنشدها عام ١٨٩٢ في رثاء توفيق :

نحن لله ما لحيّ بقاء وقصارى سوى الإله فناء
نحن لله راجعون فمن ما ت ومن عاش ألف عام سواء

وتلك الأبيات التي نظمها في رثاء الشيخ علي يوسف عام ١٨٩٧ :

هي الدنيا وإن جادت بخيلة يد الحرمان في يدها المنيلة
سواء من يعيش الألف فيها ومن أيامه فيها القليلة

يجد الباحث لإسماعيل صبري براعة لا تدانى ، ومهارة لا يشق لها غبار في شعر التصوف الذي يصدر عن نفس مؤمنة ، وروح خاشعة متبتلة من خشية الله كقوله :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يا رب أين ترى تقام جهنم للظالمين غداً وللأشرار
لم يبق عندك في السموات العلا والأرض شبراً خالياً للنار
يا رب أهلني لفضلك واكفني شطط العقول وفتنة الأبصار

وهكذا كانت كل حسنة تطفى على كل نقيصة فيه ، حتى أصبح شعره مثلاً رفيعاً للشعر الجيد الرائق الرائع ، وأصبح هو علماً من أعلام الشعر في العصر الحديث ، له أثره وخطره ، وله منزلته المرموقة ، ومكانته الملحوظة في تاريخ الأدب الحديث .

الدكتور جمال الدين الرمادي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net